البـــاب الأول

سيكون الحديث فى هذا الباب عن الحجاب فى الشرائع السابقة على الإسلام، وفى التنظيمات التى اتخذت بشأنه فى المدنيات الحديثة.

والحق أن فكرة الفصل بين الجنسين، أو تنظيم اتصال بعضهما بالبعض الآخر ومراقبته، فكرة قديمة معروف ... أحس كل طرف منهما بما أودع فيه من قوة جاذبة.

وقد وضعت كل جماعة من الجماعات البشرية لنفسها تنظيما رأته محققا لعدم الفوضى فى التجاذب الجنسى، وسواء أكانت فكرة الحجاب قد نبتت فى أول بيئة دينية عرفها المؤمنون بأنها أسرة آدم، التى هى أول حلقة فى سلسلة المجموعة البشرية، أم عرفت بالتجارب العملية والأحداث الجارية، وذلك على مذهب القائلين بالنشوء والارتقاء، فإنها على كل حال فكرة عريقة فى القدم، معروفة تقريبا عند كل جماعة، وإن اختلفت الصور والتطبيقات وفى الفصول التالية بعض من هذه الصور.

* * *

الفصل الأول
الحجاب فى التشريعات الوضعية القديمة

● أولا - القبائل البدائية :

من كلام الباحثين والمؤرخين يبدو أن الحجاب فى البيئات البدائية لم يكن معتنى به، فان الحاجة الملحة إلى طلب العيش، عن طريق الصيد أو الرعى، كانت تسوق المرأة الى أن تتعاون مع الرجل وتشاركه كفاحه ونشاطه، وذلك ملاحظ فى قبائل « كالموك »(١) وقبائل القرغيز، فاختلاط الجنسين موجود عندهم منذ الصغر، وإن كانوا عند الكبر ينصرف الفتى لمساعدة والده، والفتاة لمساعدة أمها.

ومع هذا كانت هناك فرص للاختلاط وهم كبار، كحفلات الزواج والرقص، ومثل قضاء المصالح من الأسواق. ولم يضيق على الاختلاط إلا فى حالات معينة، كما بين الرجل وحماته، والمرأة وحماها، وذلك معروف أيضاً عند قبائل الباجندا فى أوغندة، حيث يحرم على أم الزوجة دخول بيت بنتها والحديث مع زوجها، وإذا تقابلا فى الطريق تنحت وغطت رأسها بثوبها، فان لم يكن الثوب كافيا جلست القرفصاء، وأخفت عينيها وجزءا من وجهها براحتيها.

وكذلك يوجد مثل هذا التقليد فى « الهوتنتوت » بجنوبى أفريقا، حيث يحرم اختلاط الأخ بأخته، وإذا حدث حديث بينهما يتم بوساطة رجل آخر نيابة عنه، فان الخجل يحول دون مواجهة أحدهما للآخر. ومثله ختان البنات يستحيا منه. وعند الولادة يستحيا من دخول كوخ الوالدة. وقد يحرم ذلك على زوجها نفسه لمدة شهر أو أكثر، وفى حالة الحيض تتجنب المرأة من زوجها وغيره.

---

(١) قبيلة تركية تقطن جبال « التاى » شرقى آسيا الوسطى، تقول دائرة المعارف الإسلامية فى مادة « التاى » : ان هذه القبيلة ظلت بعيدة عن الإسلام وحضارته، وان تأثر أهلها تأثرا غير مباشر بحضارة الإسلام، ففى كلامهم كلمة « خداى » بمعنى « الله ». ولاتزال هذه القبيلة تعتنق إلى اليوم المذهب الشامانى، وتحول بعضهم إلى المسيحية على يد دعاة من الروس.

● ثانياً – المدنيات القديمة:

الغالب فى المجتمعات المدنية هو الحجاب، وذلك لضمان عفة النساء، وشرعية النسل، ووسائل الحجاب متعددة، ففى بعض الشعوب ابتكر الرجل حزاما يسمونه «حزام العفة» له قفل صمم على أساس السماح للمرأة بقضاء حاجتها دون الاتصال الجنسى، وقد شاع فى أوروبا فى العصر الوسيط كما كان معروفا فى اليابان.

وإليك الحديث عنه فى أهم البيئات المدنية القديمة.

(١) بابل وأشور:

كان الحجاب موجودا فى بابل والمملكة الكلدانية قبل ألفى سنة من الميلاد، كما يدل عليه قانون حمورابى[١] الذى كان قبل موسى بخمسة قرون أو ثمانية. وظل يعمل به بعد موته بنحو عشرة قرون فى عهد الملك «أسوربانيبال» ملك نينوى. ففى لوحات طينية اكتشفت فى آشور القديمة ترجع إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد وجد نظام للحجاب مطبق على الحرائر دون الاماء والعواهر. بل كانت توقع عقوبات شديدة على الاماء والعواهر إذا تحجبن، وذلك بثلم أذن الأمة وجلد العاهر خمسين، وصب القطران على رأسها، ويكافأ الرجل الذى يقبض على المخالفات، ويعاقب إذا قصر فى التبليغ عنهن، وذلك بجلده أو ثقب أذنيه وربطهما بخيط يعقد عند ظهره،

ومع ذلك كانت الأمة تتحجب إذا خرجت مع سيدتها، وكذلك العاهرة إذا تزوجت.

وتبين فقرة أخرى على اللوحة الأولى أن الرجل إذا أراد أن يعطى أمته صفة الزوجة يضع عليها حجابا أمام شهود ويقول أنها زوجتى[٢].

---

(١) مختلف فى عصره. ففى موسوعة «المعرفة» ج١١ ص ١٦٢ أنه أول ملك لمملكة بابل حوالى ١٨٠٠ق.م. وحكم ٤٣ سنة. وفى بحث للدكتور محمود سلام زناتى بمجلة العربى «نوفمبر ١٩٧٣» أنه حكم من ١٧٢٨ – ١٦٨٦ق.م. وفى المجلة نفسها «عدد أغسطس ١٩٧٠» أنه حكم من ١٧٩٢ – ١٧٥٠ق.م. وانظر مجلة «العلم للجميع» ج٣ ص ١٣٤ – وهناك نبذة عنه فى بحث الطلاق.

(٢) مجلة العربى مارس ١٩٦٩.

(٢) مصر :

كان المصريون القدماء يحرصون على عفاف المرأة، لدرجة أنهم كانوا يحكمون على الزانى بقطع أعضائه التناسلية، وعلى المرأة بقطع أنفها إن كان الزنى برضاها. وفى المحاكمة الأخروية تكون البراءة من الزنى، ولكن مع هذا لم يوجبوا حجب المرأة عند الظهور فى المجتمعات كالحقول والأسواق، بدليل صورهم المنقوشة على الآثار، وقد ظهرت فيها المرأة سافرة مع الرجال.

ويصف ذلك « هيرودوت » عند زيارته لمصر فى القرن الخامس قبل الميلاد فى كتابه « تاريخ العالم » فيقول: إن المصريين نظروا إلى مناخ بلادهم الخاص، وإلى أن نهرهم له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة سائر الأنهار، فأتخذوا لأنفسهم عادات وسننا مخالفة من كل الوجوه تقريباً لما يتخذه سائر الشعوب، فالنساء عند المصريين يذهبن إلى الأسواق، ويمارسن التجارة. أما الرجال فيبقون فى البيوت وينسجون « محمود سلام زناتى ».

ولم يشدد على الحجاب إلا فى أيام الفتن الداخلية، أو الخضوع لغزو خارجى، حيث كانت المرأة لا تأمن على نفسها عند الخروج. بدليل نقوش فى عهد رمسيس الثالث يفخر فيها بالانتصار على الأعداء وإقرار الأمن، جاء فيها: لقد أمكن لكل امرأة أن تسير خارج منزلها رافعة قناعها بلا خوف، لأنه لم يعد أحد يتعرض لها.. « المصدر السابق ».

(٣) الهند :

يقول الدكتور زناتى أيضاً « مجلة العربى، مارس ١٩٦٩ »: ذهب جماعة إلى أن الحجاب لم يكن معروفا عند الهنود قبل الفتح الإسلامى. ولكن من دراسة الآثار الأدبية فى القرن الثالث والرابع قبل الميلاد، عرفنا تقييد حرية اتصال المرأة بالرجل عند تحدثهم عن القرابين التى لا تقبل إلا من الولد الحقيقى، وفى وصيتهم بحراسة المرأة من الشر الجنسى، وذلك بشغلها بالواجبات المنزلية والمالية والدينية.

وفى كتاب لفقيه هندى اسمه «منو» أو «مانو»: لا ينبغى للمرء أن يجلس فى مكان منعزل مع أمه أو أخته أو بنته، فالشهوات غلابة، وهى تتسلط على الرجل العالم.

وفى أحد الآثار الأدبية: أن الملك «راما» خرج يوما من قصره مع زوجته «سيا» فوجد رعاياه ينتظرون بفارغ الصبر عند باب القصر، لإلقاء نظرة عليهما. وعندما وجد الملك هذا الجمهور المتلهف حوله أمر زوجته بقوله: يا سيدة «ميثيلا» ارفعى نقابك. ثم التفت إلى الناس وقال لهم: تطلعوا دون غضاضة إلى زوجتى، ولتسل الدموع على وجوهكم مدرارا، فلا إثم فى النظر إلى النساء عند التضحية وفى الزفاف وعند الكارثة وفى الغابة.

(٤) فارس:

ويقول الدكتور سلام أيضاً: كان الحجاب مفروضاً على نساء فارس. ففى الرسوم والنقوش الفارسية القديمة لا تجد أثرا للمرأة، كما يروى عن أحد ملوكهم أنه أقام مأدبة للرجال فى مقصورته الخاصة، بينما كانت زوجته تستقبل النساء فى مقصورة أخرى، وعندما دعا الملك الملكة إلى القدوم عليه رفضت الظهور أمام الرجال.

(٥) اليونان:

لما كانت حضارة اليونان أساس الحضارات الأوروبية بالذات، وكانت لها عدة جوانب مشرقة اهتم الباحثون بدراستها وكثرت الكتابات عنها، وتوافرت المصادر المتصلة بها.

نقل محمد فريد وجدى فى دائرة معارفه عن دائرة معارف «لاروس»: أنه كان من عادة نساء اليونان القدماء أن يحجبن وجوههن بطرف مآزرهن، أو بحجاب خاص كان يصنع فى جزائر «كرسى وأمرجوس» وغيرها، وكان شفافا جميل الصنعة. وقد تكلم عن الحجاب أقدم مؤلفى اليونان، حتى يروى أن امرأة الملك «عوليس» ملك جزيرة «ايتاك» كانت تظهر محتجبة. وكان نساء مدينة

« ثيب » يحتجبن بحجاب خاص، وهو عبارة عن غطاء يوضع على الوجه، وله ثقبان أمام العينين لتنظر منهما المرأة. أهـ.

وفى أثينا حجبت المرأة الحرة ولازمت البيت الذى كان يحكم إغلاقه، وتمنع كل صلة توصل إليه عند غياب الرجل، وأعفيت منه الإماء والبغايا. ومن عاداتهم عدم رؤية الزوجين أحدهما للآخر إلا ليلة الزفاف، ولم يكن زواج المرأة مخولا لاختلاطها بالرجال أو خروجها من المنزل، فهى لا تستقبل فى بيتها إلا النساء أو الأقارب، وكان مجرد حضور الزوج مصحوبا بأحد أصدقائه سببا فى اختفائها واحتمائها بالغرف الخاصة بالنساء، ولا يسمح بخروجها من المنزل إلا لسبب وجيه كزيارة قريبة أو عيادة مريض. وعند الخروج يوضع عليها حجاب ثقيل يخفى معالم وجهها. كما وصف « ديكايرش » نساء طيبة « إحدى مدن اليونان » بقوله: كن يلبس ثوبهن حول وجههن بطريقة يبدو معها هذا الأخير وكأنه قد غطى بقناع، فلم يكن يرى سوى العينين، وكان يرافقها حتما أحد أقاربها الذكور أو أحد الأرقاء. وكان بعض الأزواج يضعون مع ذلك أختامهم على أبواب دورهم عند غيابهم، وذلك لزيادة الإطمئنان على النساء.

ولم يرفض بعض كتابهم هذه القسوة، فيقول « ميناتور »: على الزوج ألا يمنع زوجته من رؤية متع الخارج، فكلنا نتمنى ذلك لتشبع حب استطلاعها، فالمحجوب يهيج الرغبة فيها، فالزوج الذى يبقى زوجته وراء المزاليج ووراء قفل مغلق ثلاثا ليس بحكيم، بل هو مجنون.

ورأى أفلاطون حرية تعليم المرأة واختلاط الجنسين فى المدارس، وذلك ليقل الإحساس بالتعارض منذ الصغر، ويمنع المشاكل بعد الزواج « العربى، مارس ١٩٦٩ ».

أما نساء اسبرطة فكن على العكس من نساء أثينا. فإن أزواجهن لم يحجبوهن، وذلك لضعف ميلهم الجنسى، بسبب انصرافهم إلى الرياضة والاستعداد الدائم للحرب. يقول محمد فريد وجدى نقلا عن « لاروس »: وفى

اسبرطة كان الفتيات يظهرن أمام الناس سافرات، ولكنهن متى تزوجن احتجبن عن الأعين، وقد كان النساء حصلن على شيء من الرخصة، فقد دلت النقوش على أنهن كن يغطين رءوسهن ويكشفن وجوههن فقط، ولكنهن متى خرجن إلى الأسواق وجب عليهن الاحتجاب، سواء كن عذارى أم متزوجات. وكان الحجاب موجودا عند نساء الشعوب النازلة فى آسيا الصغرى، وعند الميديين والفرس. .أهـ.

يقول «ركورنيليوس نيبوس»، وهو مؤرخ رومانى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد عندما زار بلاد اليونان: كثير من الأشياء التى نظمها الرومان بلباقة يرى فيها اليونان منافاة لحسن الآداب، فأى رومانى يستشعر العار من اصطحابه زوجته إلى مأدبة، والرومانيات يشغلن عادة الحجرات الأولى من المنزل والأكثر تعرضا للرؤية، حيث يستقبلن معارفهن كثيرا. أما عند اليونان فالأمر على النقيض، فنساؤهم لا يشتركن فى مأدبة إلا إذا كانت لدى أقاربهن. وهن يشغلن دائما الجزء الأكثر انزواء من المنزل. والذى يحرم دخوله على كل رجل غير قريب «د. زناتى».

ويقول المودودى: كان الحجاب شائعا فى البيوت اليونانية العالية، وما كان النساء يشاركن فى المجالس المختلطة. وكان يعد زواج المرأة وملازمتها لزوجها من أمارات الشرف. وبهذا كانوا يمقتون العهر والدعارة، مع ممارسة المرأة لها فى أحياء البغايا، وإذا كانت هناك مفاسد فهى من الرجال مع أنهم يطلبون عفة المرأة.

ويقول: ولما تطور المجتمع اليونانى تغلبت المرأة، وغلت العاهرات بشكل لا نظير له، وكانت بيوتهن يؤمها عظماء الدولة، وكلمتهن مسموعة فى السياسة، وبلغ حبهم للجمال أن تفوقوا فى صنع التماثيل العارية وغيرها. ومن هنا جعل فلاسفتهم الزنى لا يعاب عليه، وعقد الزواج لا أهمية له.

لقد عبدوا أفرُوديت» التى تقول أساطيرهم: إنها خانت ثلاثة آلهة، مع كونها زوجة لإله، وكان من إخوانها رجل من عامة البشر، علاوة على تلك الآلهة. ومن بطنها تولد «كيوبيد» إله الحب، نتيجة اتصالها بهذا الخدن البشرى.

ولما انتشرت عبادة أفروديت كانت المواخير بيوتا للعبادة، وأصبحت العاهرات خادمات للمعابد، وعظم شأن الزنى حتى ألبسوه كساء دينيا. وبلغ العهر بالرجال أن انتشر فيهم اللواط، حتى كان من لوازم الصداقة. وقد خلد اثنان من كبرائهم بالتماثيل، لأن الحب الذى جمع بينهما كان عن هذا الطريق المنكر، وهما هرموديس، أرستوجيتان. أهـ.

ويقول محمد فريد وجدى فى تاريخ الحجاب: كانت حضارة اليونان لا ترى بأسا أن يقدم الرجل زوجته للضيف يستمتع بها، ولا حرج فى اشتراك أزواج عدة فى زوجة واحدة، وكان هذا ثمرة فلسفتهم، فأفلاطون يوجب فى جمهوريته أن يكون النساء دولة بين الرجال، ككل شىء آخر يتداولونه، وسقراط يستصوب تقارض الأصدقاء لزوجاتهم[1].

(٦) الرومان:

كان الرومان فى عهودهم الأولى يحجبون النساء ويلزموهن البيوت كما ذكرت دائرة معارف وجدى نقلا عن «لاروس». وبلغ من تشددهم فى حجبها أن القابلة «الداية المولدة» كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة ووجهها ملثم بعناية بالغة، وعليها رداء طويل يلامس الكعبين، وفوق ذلك عباءة لا تسمح برؤية شكل قوامها.

فلما أثرى الرومان فى عهد الامبراطورية أخرجوا النساء لحضور مجالس الأنس، فأسرفن فى الزينة والخلاعة، وتدخلن فى السياسة، وساءت أحوال الدولة بسببهن، فقامت صيحات ضدهن، أشهرها حملة «كاتو»[2] ولكنه لم يفلح،

---

(١) وقد أعار هو نفسه زوجته جزانتيب إلى صديقه أليسياب «الأسرة والمجتمع» لعلى وافى ص ٦٣، ٦٤.

(٢) هو «ماركوس بوركيوس كاتو» ولد فى احدى مدن ايطاليا «توسكولوم» وعاش خمسا وثمانين سنة، نشأ أثانيا محبا لنفسه، ماهرا فى الجندية والسياسة، اتجه إلى اصلاح الأخلاق. وبخاصة تبرج النساء، ووصل إلى درجة رقيب «سنسور» طرد «مانليوس» من مجلس السناتور لأنه قبل زوجته نهارا بمرأى من ابنتهما، ولما طعن فى السن صار داعرا منحرف الأخلاق، ومات وهو موضع احترام الناس. وكان ذلك فى القرن الثالث والثانى قبل الميلاد «كتاب معالم تاريخ الانسانية»: تأليف هـ. ج. ولز ج ٢ ص ٤٤٦، ٤٤٧.

فكانت معارضتهن ومعارضة أنصارهن قوية، تريد حمايتها فى التمتع بكامل حريتها فى التزين والتبرج.

ففى سنة ٢١٥ ق. م خطب «كاتو» فى «التربيون»، وقال: لو أن الرجال احتفظوا بحقوقهم ومهابتهم فى منازلهم الخاصة ما خرج النساء بين الجماهير يضطربن فى هذا الأمر، ولو أن للنساء شعورا سليما من الخفر لعلمن أنه لم يكن من المناسب أن يبدين هذا الاهتمام بالموافقة على القوانين أو الاهتمام بإلغائها.

وقد ذكرت دائرة معارف القرن التاسع عشر أنه قال: أتتوهمون يا معشر الرجال أنه يسهل عليكم احتمال النساء إذا مكنتموهن من فصم الروابط التى تقيد استقلالهن وتخضعهن لأزواجهن؟ ألم يصعب علينا - حتى مع وجود هذه القيود - إلجاؤهن الى أداء واجبهن؟ أما ترون أنهن سيصرن مساويات لنا، وسيوقعننا تحت نيرهن؟ لقد قالت إحداهن: إننا نريد أن نكون متلألئات فى الذهب والأقمشة القرمزية، وأن نتمشى فى طرق المدينة أيام الأعياد والأيام الأخرى... وأن نتمتع بحرية انتخابكم، وألا تضعوا حدا لمصاريفنا وبذخنا، البَذخ هو الترف.

وقد عارضه «لوسيس فُلاربُس» وشجع حريتهن وتمتعهن كما يشأن. وقد صدر فى هذه الفترة قانون يحد من حريتهن، يسمى قانون «أوبيا» ولم يفلح «كاتو» فى معارضته، وتحقق ما كان يتوقعه، فانتهى أمر الإباحية بانحطاط الإمبراطورية، وعرف الرومان أخيرا أن سبب ذلك هو المرأة وخلاعتها وتدخلها فيما لا يعنيها، وعاقبوها على ذلك أسوأ العقاب، فأسرفوا فى هضم حقوق النساء والحط من تغاليهن، حتى حرموا عليهن أكل اللحم والضحك، وغالوا فى هذا فوضعوا فى أفواههن أقفالا تسمى «موزلبير».

وكان من أساليب تعذيبهن أن يصب القطران على أجسادهن، أو تربط أرجلهن فى خيول متحالفة وتترك لتركض حتى تمزق النساء، أو تربط جماعة منهن فى سارية تحتها نار هادئة عدة أيام ليمتن كذلك بتساقط لحومهن.

ويقول المودودى : عندما خرج الرومان من دور الهمجية كان الرجل رب الأسرة وصاحب السلطان، حتى كان له أن يقتل زوجته أحيانا. ولما تقدموا فى الرقى استوت كفة المعاملة بين الرجل والمرأة، وهؤلاء لم يكن الحجاب معمولا به عندهم كاليونان فى أيام مجد الجمهورية، لكنهم قيدوا المرأة والشباب عامة بقيود شديدة من نظام الأسرة، فالعفاف كان مكرما، ولاسيما فى النساء. وقد استنكروا من الرجل أن يقبل زوجته أمام ابنته، وعدوا الاتصال الجنسى بغير الزواج منكرا، والعاهرات، وإن كن موجودات، إلا أن الرومان كانوا يحتقروهن. ثم تغيرت نظرة الرومان للمرأة بعد تقدمهم ورقيهم، فلم يحترم عقد الزواج ولا حقوق الزوجية، وتحررت المرأة من سلطة الأب والزوج، ثم أثرت المرأة وأغتنت، وسهلوا أمر الطلاق، فكان يتم لأتفه الأسباب. فهذا «سنيكا» الفيلسوف الرومانى «٤ ق.م - ٦٥م» نعى على كثرة الطلاق بين قومه، وقال: إن النساء جعلن يعددن أعمارهن بأعدادأزواجهن. وقد تتزوج المرأة رجلا بعد آخر دون حياء.

ويقول ذكر «مارشل» «٤٣ - ١٠٤م» امرأة تزوجت عشرة رجال. وكتب «جرونيل» «٦٠ - ١٤٠م» أن امرأة تزوجت ثمانية رجال فى خمس سنوات. وذكر القديس «جروم» «٣٤٠ - ٤٢٠» امرأة تزوجت فى المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها، وكانت هى الزوجة الحادية والعشرين لزوجها.

وتطور أمرهم فجعلوا الزنى شيئاً عادياً. ورأينا «كاتو» الذى أسندت إليه الحسبة الخلقية «أى الرقابة على الأخلاق» سنة ١٨٤ ق. م يجيز الفحشاء للشباب. كما يطلق العنان للشبان المصلح «شيشرون». ويجىء «ابيكتتيوس» الفيلسوف الرواقى فيقول لتلاميذه: تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج ما استطعتم، ولكنه لا ينبغى أن تلوموا أحدا وتؤنبوه إذا لم يتمكن من كبح جماح شهواته. فلما تفاقم أمر الفساد والفجور. وراجت مهنة المومسات وكثر الأدب المكشوف اضطر القوم إلى منع احتراف مهنة البغاء، وذلك فى عهد القيصر «تائى بيريس» «١٤ - ٣٧م».

(٧) الجزيرة العربية[١] :

لقد كانت المرأة العربية فى الأعم الأغلب فى أيامها الأولى لا تعرف الحجاب بكل مقوماته الإسلامية، وإن كان للعفاف عند العرب قيمة كبيرة، اللهم إلا فى حالات شاذة لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات، حيث كان الإماء يتخذن من الدعارة وسيلة للكسب، وذلك لصالح سادتهن، كما كانت هناك بعض النظم لاتصال الرجل بالمرأة كالاستبضاع وافتضاض كبير القوم لكل عروس، كما كان بعضهم يقاتل البعض الآخر ليفوز برضا إحدى البغايا، كالحكاية التى ذكرها الجاحظ فى كتابه «المحاسن والأضداد ج٢ ص ٦٤» وخلاصتها: أن الخنيفس بن حَشْرَم كان أغير أهل زمانه وأشجعهم، وكان يحب امرأة نافسه فى حبها عبيدة بن المَقْشَعِرّ الضَّبِّى، وكان عزيزا أيضاً فى قومه. فقتله الخنيفس، وأخذ عاصم أخو عبيدة منه بثأره، فقتله فى آخر يوم من جمادى الثانية قبل حلول رجب[٢].

وتقدم فى الجزء الأول صورة من نكاح الجاهلية.

ومما يدل على عدم حجاب المرأة مغامرات امرىء القيس وأشعار الغزل لكبار الشعراء وقول الله سبحانه ﴿ **وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ** ﴾ [الأحزاب :٣٣]. والتبرج قيل: هو المشى مع تبختر وتكسر، وقيل: أن تلقى المرأة خمارها على رأسها ولا تشده فتنكشف قلائدها وقرطها وعنقها وقيل: أن تبدى من محاسنها ما يجب ستره.

---

(١) جاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن الشعر الجاهلى يدل على أن سنة الحجاب بمعنى تغطية الرأس والوجه كانت معروفة من قبل مجيء النبى ﷺ، ذلك ان الحجاب كان ميزة النساء من درجة خاصة، وكان يشار إليه بأسماء «نصيف»، «ستر»، «سجف» وغير ذلك. ومع أن آيات الحجاب نزلت فى السنة الخامسة للهجرة إلا أنه يقال أن عائشة لبست الحجاب لما تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام فى شوال من السنة الأولى للهجرة، وتغطية الرأس والوجه استخدم لها اللثام والقناع والبرقع.

والحجاب لم يكن مرعيا فى المدينة إلا فى القليل النادر، ولما شرع واتسعت رقعة الدولة الإسلامية التزمه كل نساء الحضر، وتهاون فيه بعض نساء البدو.

(٢) وفى هذه الحادثة قيل: العجب كل العجب بين جمادى ورجب.

وهو مأخوذ من البرج «بفتح الباء» وهو السعة، كما توصف العين الحسنة بالسعة، وكما يقال: في أسنانه برج إذا كانت متفرقة. وقيل: هو من البرج أى القصر العالى، ومعنى تبرجت المرأة ظهرت من برجها. وهو بهذا المعنى يجعل الجملة كالتأكيد لما قبلها «وقرن في بيوتكن».

والجاهلية الأولى مختلف في تحديد وقتها، وملخص ما قيل فيها، مأخوذا من تفسير القرطبى «ج١٤ ص ١٧٩» وغيره ما يأتى:

١ ــ ما بين آدم ونوح، وهو ثمانمائة سنة. قاله الحكم بين عيينة.

٢ ــ ما بين نوح وإدريس، كما قاله ابن عباس.

٣ ــ ما بين نوح وإبراهيم، كما قاله الكلبى.

٤ ــ ما بين موسى وعيسى، كما قاله جماعة.

٥ ــ ما بين داود وسليمان. كما قاله أبو العالية.

٦ ــ ما بين عيسى ومحمد، كما قاله الشعبى.

وكلها أقوال لا يسندها دليل صحيح. فالقدر المتفق عليه أنها قبل بعثة النبى ﷺ بزمن طويل يشعر بأن فيه جاهلية ثانية أتت بعدها، وهى أقرب منها إلى البعثة.

وكانت المرأة فى الجاهلية الأولى تلبس الدرع من اللؤلؤ، أو القميص من الدر، غير مخيط الجانبين، وتلبس الرقاق من الثياب ولا توارى بدنها، فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال.

وكانت، كما قال أبو العالية، تجلس مع زوجها وخِلِّها، فينفرد خلها بما فوق الإزار، وينفرد زوجها بما دون الازار إلى أسفل. وربما سأل أحدها البدل من صاحبه[1].

---

(١) الانسان يعجب كيف تحدث هذه الحالة التى يشترك فيها اثنان، كل منهما بنصف مع أنها زوجة احدهما، هل ماتت الغيرة إلى هذا الحد، يرى المنكر على زوجته فيقره ولا يرى به بأسا؟ يغلب على ظنى أن المبالغة فى ذم الجاهلية الأولى أغرت باختراع هذه الصور الشاذة.

وبمثل هذا التصوير للمرأة فى الجاهلية الأولى يغلب على الظن أنها كانت فى أيام عاد وثمود، حيث جاء فى القرآن ما يدل على ما كانوا ينعمون به من قوة وبطش ومصانع وأنعام وبنين وجنات وعيون، وبيوت منحوتة فى الصخر... والجاهلية الثانية هى التى جاء بعدها مباشرة سيدنا محمد ﷺ، والعرب فيها، وبخاصة فى أرض الحجاز، ماكانوا بالثراء الواسع الذى تلبس فيه نساؤهم ما كانت تلبسه المرأة فى الجاهلية الأولى على النحو الذى صورته أقوال المفسرين.

ذكر مسلم فى كتاب التفسير من صحيحه: أن المرأة كانت تطوف بالبيت وهى عريانة – فى لسان العرب: إلا أنها كانت تلبس رهطا من سيور – فتقول: من يعيرنى تطوافا – فتح التاء وكسرها – تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فـــلا أُحلّه

فنزلت هذه الآية: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ [الأعراف: ٣١] وكان إعطاء المرأة ما تطوف به يعد من البر(١).

ذكر السهيلى فى كتابه « الروض الأنف » ج١ ص ١٧٤، أن قائلة البيت المذكور عند الطواف هى ضباعة بنت عامر بن صعصعة، ثم من بنى سلمة ابن قشير. وذكر محمد بن حبيب أن رسول الله ﷺ كان قد خطبها، فذكرت له عنها كبرة، فتركها، فقيل: إنها ماتت كمدا وحزنا على ذلك. والكَبْرَة هى كبر السن.

ونسبها الكامل هو: ضُباعة بنت عامر بن قرط بن سلمة بن قشير بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة. ثم من بنى سلمة بن قشير.

وجاء فى شرح الزرقانى على المواهب اللدنية « ج٣ ص ٢٧٠ » أنها كانت

---

(١) وقد ذكرت بعض المصادر بيتا قبل هذا البيت وهو:

اخثم مثـــل القعب بـاد ظله كـأن حمـــى خيبر تملّـــــه

اخثم = عريض كبير، والمراد به الفرج، يقول النابغة الذبيانى – كما فى أساس البلاغة:

وإذا لمست لمست اخثم جاثما متميزا بمكـــانـــه مـــلء اليـــد

والقعب بفتح القاف = الاناء الذي يوضع فيه السائل كاللبن. تمله = ترده فى الملة هى الرماد الحرق، وذلك كناية عن حرارته « بلوغ الارب ج ٢ ص ٢٨٦ ».

من أجمل نساء العرب وأعظمهن خلقا، وإذا جلست على الأرض أخذت منها شيئاً كثيرا، وتغطى جسدها، مع عظمه، بشعرها.

وذكر أن عبدالله بن جُدْعان تزوجها بعد هوذة بن على الحنفى الذى توفى عنها، فسألته طلاقها ففعل بعد أن حلفها أنها إن تزوجت هشام بن المغيرة المخزومى تنحر مائة ناقة سود الحدق، وتغزل خيطا يمد بين أخشبى مكة – هما جبلان حول مكة – وتطوف بالبيت عريانة. فتزوجها هشام، ونحر عنها مائة ناقة، وأمر نساء بنى المغيرة بغزل خيط ومده بين الأخشبين. وأمر قريشا فأخلوا البيت.

قال المطلب بن أبى وداعة السهمى، وكان لدة رسول الله ﷺ، أى فى مثل سنة: فخرجت أنا ومحمد ونحن غلامان، واستصغرونا فلم نمنع. فنظرنا إليها، فخلعت ثوبا ثوبا وهى تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

حتى نزعت ثيابها، ثم نشرت شعرها على ظهرها وبطنها، فما ظهر من جسدها شيء، وطافت وهى تقول: الشعر....

فلما مات هشام – والد أبى جهل – وأسلمت وهاجرت خطبها النبى ﷺ فقبلت، ولكن الصحابة أخبروه بكبر سنها وذهاب جمالها وسقوط أسنانها، فسكت عنها.

وجاء فى الروض الأنف «ج١ ص ١٣٤»: ان الله صرف رسوله عنها. لما يعلم من غيرته، والله أغير منه. فكان ذلك تكرمة له[١]. وذكر أيضاً ان رجلا انضم إلى امرأة تطوف عريانة بقصد التلذذ، فلصق عضده بعضدها، ففزعا وخرجا من المسجد على هذا الحال، ولم يستطع أحد فكهما إلا بعد أن قيل لهما: توبا مما كان فى ضميركما، وأخلصا لله. ففعلا، فانحل أحدهما من الآخر.

---

(١) انظر تكملة قصة زواجها فى الجزء الخاص بتعدد زوجات النبى، وما قيل عن شهوانية الرسول عليه الصلاة والسلام.

جاء فى سيرة ابن هشام بشرح السهيلى « ج١ ص ١٣٣ » : أن الحمس – وهم المتشددون فى التدين – قالوا : لا ينبغى لأهل الحلِّ إذا جاءوا حجاجا أو عمارا أن يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة . فاذا تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا . وكانت العرب تسمى تلك الثياب « اللُّقى » فحملوا على ذلك العرب فدانت به، وطافوا بالبيت عراة . أما الرجال فيطوفون عراة، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها، إلا درعا مفرجا عليها، ثم تطوف به .

ويعلق النووى على الحديث الذى رواه مسلم فى التفسير فيقول عن التطواف : إنه ثوب تلبسه المرأة تطوف به . وكان أهل الجاهلية يطوفون عراة، ويرمون ثيابهم، ويتركونها ملقاة على الأرض، ولا يأخذونها أبدا . ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى، ويسمى « اللُّقاء » حتى جاء الإسلام، فأمر الله بستر العورة فقال تعالى : ﴿ **خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ وقال النبى ﷺ « لا يطوف بالبيت عريان » مسلم شرح النووى ج ١٨ ص ١٦٢ .

ولئن كان العرب فى الجاهلية يعرفون شريعة إبراهيم الذى مارسوا طقوسه فى الحج، وكانوا على صلة باليهود والنصارى فى أماكن متفرقة من الجزيرة، والحجاب مشروع فى اليهود والنصرانية، إلا أن ما أخذه العرب من هذه الشرائع لم يكن مطابقا للأصول الأولى للدين الذى جاء به إبراهيم بل دخله كثير من التشويه بالتبديل والتحريف[١] .

* * *

(١) هذا عند عامة الجزيرة، أما الكبار والأشراف فكانوا يعرفون البرقع، كما تقدم فى سقوط برقع المتجردة امرأة النعمان وشعر النابغة فى ذلك .

الفصل الثانى
الحجاب فى الأديان السماوية

١ - فى اليهودية:

لقد حذرت الأديان كلها من الفتنة بالمرأة، ومن أجل ذلك فرض الحجاب. وأقدم كتاب سماوى معروف بعد صحف إبراهيم هو التوراة التى نزلت على سيدنا موسى، وقد حرفت وبدلت عندما نزل القرآن الذى قرر أنه جاء مهيمنا على ما سبقه من الكتب. وما يوجد الآن عند اليهود مما يسمونه التوراة وعند النصارى ما يسمونه الانجيل، إنما هو وضع من أحبارهم مطعم ببعض ما كان فى الكتاب الحقيقى الذى أنزله الله من السماء. ولكنهم يدينون بما لديهم، فإذا نقلنا من هذه الكتب نصوصا فهى تدل على ما لديهم من فكرة عن الحجاب، وهى تؤكد الأصل المقرر الذى لا ينكر وهو أن النساء فتنة، ولابد من تنظيم علاقتهن بالرجال، بمثل فرض الحجاب.

جاء فى الإصحاح الخامس من أمثال سليمان: أن شفتى المرأة الأجنبية تقطران عسلا، وحنكها أنعم من الزيت، لكن عاقبتها مرة كالأفسنتين، حادة كسيف ذى حدين، قدماها تنحدران إلى الموت، خطواتها تتمسك بالهاوية.

لقد عرف اليهود هذا السلاح الخطير فى المرأة، فاستغلوه أسوأ استغلال، لتحقيق الخير لهم، ولإفساد غيرهم من الناس، جمعوا عن طريقه الأموال، ودبروا المؤامرات، وأشعلوا نيران الحروب. ومن أصدق ما يعبر عن سلوكهم هذا خطاب اليهودى «رانجهون» سنة ١٨٦٩م أمام قبر الحاخام «بن يهوذا» فى «براغ» عاصمة تشيكوسلوفاكيا، المنشور بجريدة فرنسية فى باريس بتاريخ ١٦/١٠/١٩٤٢[١] فقد جاء فيه:

يجب علينا أن نمزق وحدة الأحزاب المصطنعة والتطاحن السياسى والأفكار

---

(١) من كتاب «جهاد ناطق» للسيد/ عمر مفتى زاده، الداعية الإسلامى بالمغرب نقلته مجلة الاعتصام، عدد اكتوبر ١٩٦٣م.

الثورية التخريبية بواسطة عملائنا الذين سينظرون إلينا نظرة العابد للمعبود، ما دمنا نملك أكبر كمية من الرصيد الذهبي، وما دمنا لن نحجز بناتنا ونساءنا عن أعدائنا الخوارج الملاعين.

يقول «سرجي نيلوس» معقبا على بروتوكولات حكماء صهيون «ترجمة محمد خليفة التونسي» ص ١٧٠، ١٧١:

إن عودة رأس الأفعى إلى صهيون لا يمكن أن تتم إلا بعد تحطيم كل ملوك أوروبا، أي حينما تكون الأزمات الاقتصادية ودمار تجارة الجملة. قد أثرا في كل مكان، وهناك ستمهد السبيل لافساد الروح المعنوى والانحلال الخلقي، وخاصة بمساعدة النساء اليهوديات المتنكرات في صورة الفرنسيات والايطاليات ومن إليهن.

إن هؤلاء النساء أصبحن ناشرات للخلاعة والتهتك في حياة المتزعمين على رءوس الأمم، والنساء في خدمة صهيون يعملن كأحابيل ومصايد لمن يفضلهن في حاجة إلى المال على الدوام، فيكونون لذلك دائما على استعداد لأن يبيعوا ضمائرهم بالمال. وهذا المال ليس إلا مقترضا من اليهود، لأنه سرعان ما يعود عن طريق هؤلاء النسوة أنفسهن إلى أيدى الراشين. ولكن بعد أن اشترى عبيدا لهدف صهيون عن طريق هذه المعاملات المالية.

وقد قرر مؤتمر اليهود العاشر سنة ١٩١٢م: أنه ليس من بأس أن نضحي بالفتيات في سبيل الوطن القومي، وأن تكون هذه التضحية قاسية مستنكرة، لكنها في الوقت نفسه كفيلة بأن توصل إلى أحسن النتائج. وماذا عسى أن نفعل مع شعب يؤثر البنات ويتهافت عليهن؟»[١].

وهذا الكلام يعطى صورة واضحة عن خطر الفتنة بالنساء، وكيف استغلها اليهود أسوأ استغلال وستأتى صور أخرى تبين خطر هذه الفتنة عند الحديث عن آثار السفور.

ومما يدل على أن الحجاب موجود في اليهودية التى لم يشوهها اليهود ما حكاه القرآن الكريم عن قصة ابنتى شعيب، وكيف ابتعدتا عن مزاحمة الرجال على البئر، وقالتا «لا نسقى حتى يصدر الرعاء» وقد جاءت إحداهما إلى موسى

---

(١) مجلة التضامن الإسلامي التي تصدر بمكة «محرم ١٣٩٢ هـ - مارس ١٩٧٢م».

تمشى على استحياء تبلغه دعوة أبيها إليه ليكافئه على معونته لهما فى سقى الماشية، وقد شهدت له بالعفة والأمانة ضمنا حيث قالت عنه ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ [القصص: ٢٣ - ٢٦].

وكذلك ما قصة علينا رسول الله ﷺ من أن بنى إسرائيل كانت نساؤهم يجتمعن مع الرجال فى المعابد متزينات، فلعنهن الله، وحرم عليهن دخول المعابد، كما سيأتى فى بيان شروط خروج المرأة من منزلها.

كما أنه قد وضعت تشريعات رادعة لمن يجرؤ على اقتحام الحمى وتلويث الشرف بالزنى، من الرجم والجلد، بل بالحرق إن كان الزنى بين المحارم. وقصة احتكام اليهود إلى النبى فى حادثة زنى تثبت ذلك، وقد أشار إليها القرآن الكريم فى قوله ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ** ﴾ [المائدة: ٤٣].

ويوجد فى أسفار نص على أن البرقع - وهو غطاء الوجه - كان موجودا عندهم. ففى سفر التكوين إصحاح ٢٤ عن «رفقة» أنها رفعت عينيها فرأت إسحاق، فنزلت عن الجمل وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائى؟ فقال العبد: هو سيد. فأخذت البرقع وتغطت.

وفى إصحاح ٣٨: أن «تامارا» قامت ومضت، وقعدت فى بيت أبيها، ولما طال الزمان خلعت عنها برقعها، ولبست ثياب ترملها[١].

وفى الاصحاح الثالث من سفر أشعياء: ١٦ - ٢٤ أن الله سيعاقب بنات صهيون على تبرجهن والمباهاة برنين خلاخلهن، بأن ينزع عنهن زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع والعصائب. فقال: من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق، وغامزات بعيونهن، خاطرات فى مشيهن، يخشخشن بأرجلهن - يصلع السيد هامة بنات صهيون، ويعرى الرب عورتهن، وينزع السيد فى اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والاساور والبراقع والعصائب والسلاسل وخناجر الشمامات والأحراز والخواتم وخزائم الأنف.

---

(١) المرأة فى القرآن للعقاد ص ٢٠١.

وبهذا يعرف أن الله فرض الحجاب على نساء اليهود ولكنهم خالفوه لغايات خبيثة كما تقدم.

(٢) فى المسيحية :

الشريعة المسيحية أو النصرانية امتداد لشريعة اليهود فى كثير من الأحكام، وكان الحجاب من بين ما أقرته المسيحية، وجاء فى كتبهم التى يتداولونها الآن ما يدل عليه.

ففيها الأمر بغض النظر عن المرأة، جاء فى إنجيل متى.. الإصحاح الخامس: ٢٨ : وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه. ونبه بشدة على مراعاة ذلك – ففى فقرة ٢٥ فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها، وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم.

ويؤكد بولس الرسول فى رسالة كورنثوس الأولى أن النقاب شرف للمرأة، ففيها: فإن كانت ترخى شعرها فهو مجد لها، لأن الشعر بديل من البرقع. إصحاح ١١ : ١٥ من رسائل بولس الأولى إلى تيموثواس ٢ : ١١ – ١٤ : إن النساء يزيّن ذواتهن بلباس الحشمة مع درع وتعقُّل، لا بضفائر أو ذهب أو لآلىء، بل بما يليق بنساء متعاهدات بتقوى الله لأعمال صالحة.

وهذه النصوص تدل على اعتراف المسيحية بضرورة الحجاب، وكانت الكنيسة فى القرون الوسطى تخصص جانبا منها للنساء، حتى لا يختلطن بالرجال.

ومن صحيفة الأسبوع بتاريخ ١٢/١٢/٢٠٠٢ بقلم د. هبة مصطفى – بجامعة عين شمس: أنه فى كتاب « المرأة اليهودية فى الأدب الحاخامى – للحاخام أ. د. برايز أستاذ الأدب اليهودى فى جامعة يشوفا: كانت عادة المرأة اليهودية أن تظهر فى العلن برأسها مغطاة، وكانت أحيانا تغطى الوجه كله تاركة عينا واحدة فقط. وحتى القرن التاسع عشر كانت اليهوديات يرتدين الحجاب حتى تأثرن بالثقافات الدنيوية فتركن الحجاب.

* * *

الفصل الثالث
الحجاب فى المدنيات الحديثة

عندما أطلت المسيحية على العالم وبدأت دعوتها فى الشرق، وانتقلت بعوامل لا مجال لذكرها الآن إلى أوروبا وفرضها حكام الرومان على رعاياها، كانت القوانين الرومانية والفلسفات اليونانية قد صبغت التعاليم الدينية بصبغتها، فتحور جزء كبير من أصولها، حتى كان دنيويا محضا تابعا لأهواء كبرائهم وكهانهم. فلم تعد المرأة عونا للشيطان ولها المكان الأدنى، بل أصبحت فى عهد تحكم المادية واحتقار الروحية متاعا متداولا، لا يحجبهن عن الرجال شىء، وأشتد ذلك الفساد فى القرون الأخيرة، حتى جاء عصر النهضة الأوروبية فرأينا صيحات المصلحين تنادى بوقف النساء عند حدودهن إلى مكانهن الأول.

وأخبار هنرى الثامن وشارل الخامس ولويس الرابع عشر، فى تعدد الزوجات وفى اتخاذ العشيقات وفى كثرة الطلاق معروفة. وكذلك حركات « سافونارولا » بايطاليا لإلزام المرأة حدودها، وإجراءات « كروميل » بانجلترا بإغلاق المسارح والحد من ترف المرأة وزينتها، وتقرير أنها عون للشيطان، كما وصفتها الفكرة المسيحية الأولى، كل ذلك يبين أن المرأة خرجت على تعاليم المسيحية الحقيقية، وانطلقت من عقالها، على ما نراه اليوم.

وجاءت الثورة الفرنسية، ففتحت الباب على مصراعيه، وسرت عدوى التحرر العام فى جميع أنحاء الدنيا، واستهان النساء بالعفاف، لدرجة أنه صار من أقبح ما تعاب به المرأة، وحتى كانت له فلسفة منظمة، حمل لواءها الوجوديون والمتحللون، وتكونت جمعيات ونواد للعراة، على ما سيأتى تفصيله بعد.

يقول المودودى: إن الدافع لأوروبا لإزالة الحجاب هو الحرية التى جاءت على أنقاض ما قبل الثورة، فأسرفوا فيها. وكانت « جورج صاند » من أكثر النساء تحررا فى اتخاذ الأزواج والأخدان. وزعيمة للتحلل والكتابة الرومانتيكية.

كما جاء بعدها طائفة من الرجال على شاكلتها، منهم «الكسندر دوما» و«الفريد ناكيه».

وفى أواخر القرن التاسع عشر جاء كتاب بروزا الحرية بمبررات عقلية، بعد أن كانت المبررات عاطفية، منهم «بول آدم» و«هنرى باتاى» و«بيير لوى».

الذى أعلن بملء فيه أن القيود الأخلاقية معوقة لنمو الذهن ونشوء مداركه، وتقرر ذلك فى كتابه «أفروديت» وقال: إن بابل والاسكندرية واثينا وروما والبندقية وغيرها ازدهرت عندما كانت الإباحية على أشدها، لكن عندما جاءت قيود الأخلاق تقيدت روح الانسان.

وكذلك فى أوائل القرن العشرين جاء كتاب آخرون يمجدون الإباحية. وزادت الحرب العالمية الأولى حركة التحرر. فمن ذلك أن فرنسا - وكانت تتزعم حملة تحديد النسل منذ أربعين سنة - رأت أن الحرب قد تأتى على شبابها وهم قليلون، فلئن نجوا هذه المرة فقد تباغتهم الحرب مرة أخرى، فلابد من زيادة النسل، فشجعوا كل اتصال جنسى أيا كان طريقه، حتى إن بعض رجال الدين مجدوا ذلك وقالوا: العذراء التى تتبرع برحمها من أجل التوليد خدمة للوطن تستحق التكريم. فكان ذلك مقويا لدعوة التحلل.

ثم قال: فى آخر القرن التاسع عشر كان الاتجاه فى أوروبا لقضاء الشهوة بحرية تامة، ومنع النتيجة «الحمل» بالوسائل العلمية، فشجع ذلك على المباشرة الجنسية المحرمة، وساعدت عليه الثورة الصناعية واختلاط العمال، واضطرار المرأة إلى العمل لارتفاع مستوى المعيشة، وإتاحة الفرصة للعلاقة الجنسية، ورضا الرأى العام عنه، لأنه ضرورة اقتصادية، وهو عين المدنية. كما أن الرأسماليين سعوا إلى جمع المال بكل وسيلة، واستغلوا فتنة المرأة فى الكسب فى المسارح وغيرها كالبغاء والأزياء الفاتنة والصور، كما أن الديمقراطية حمت الحرية، وصارت الأخلاق والقوانين بيد الناس، يغيرونها كيف يشاءون.

ولقد حدث قبل العصر النازى أن قرر المجلس التشريعى الألمانى بالأكثرية،

عدم جريمة اللواط مادام برضا الجانبين، وإن كان المفعول به دون البلوغ فبرضا وليه، وذلك على أثر نشاط الدكتور «ماغنوس هرشفيلد» وكان من قبل رئيسا لرابطة الإصلاح الجنسى العالمية.

ويقول المودودى أيضاً: أمريكا مثل فرنسا فى العهر، تحمل فيها البنات فى سن مبكرة فى المدارس، وفى المدارس الخاصة بالذكور يكثر اللواط، والمدارس المختلطة يكثر فيها الزنى، ويساعد على ذلك الأدب المكشوف والأفلام وسوء خلق النساء بالتبرج والتدخين... وللبغاء هناك سوق رائجة، كما توجد دور للمقابلات الخاصة. ومن هنا كثرت الأمراض السرية والطلاق، وقل الزواج وانعدمت عاطف الأمومة. انتهى بتصرف.

الواقع أن فكرة فصل الجنسين بعضهما عن بعض، والحيطة من افتنان أحدهما بالآخر موجودة عند أكثر الأمم والمجتمعات، حاضرها وماضيها.

يذكر الرحالة محمد ثابت فى كتابه «بنات حواء» أن الحجاب فى الشرق مرده الغيرة أو علو المنزلة، أى منزلة الرجل على المرأة، فهى خاضعة له، وكان من آثار ذلك فى القرون الوسطى تخصيص جانب من الكنيسة للنساء. ولايزال هذا النظام قائما إلى اليوم، وهو سبب دفع كثيرا من النساء إلى الرهبنة، ومن آثاره عدم قبول المرأة عضوا فى بعض الجمعيات كالماسونية.

والعزلة واجبة عند الشعوب التى تعدد الزوجات، فلكل زوجة جانب من البيت، وحتى الرجل لابد أن تكون له غرفة خاصة به، كما هو عند الشعوب المتأخرة أيضاً، فعند شعوب الماساى بأوغند يعتزل المقاتلون من الشبان النساء كلية، حتى يحل أجل الزواج، وعند ذلك يباح لهم مقابلة النساء، حتى خصصت شعوب ميلانيزيا وغانا الجديدة بيوتا للعزاب من الرجال، ولا يقربها النساء قط.

وفى «فيجى» يحسن أن يبيت الرجل فى منزل العزاب، ولا ينام فى بيت زوجاته إلا نادارا، وإلا حط ذلك من هيبته. وفى جزائر «ساندوتش» و«هونولولو»

تخصص بيوت للذكور وأخرى للاناث لأجل النوم، وتخصص بيوت منفصلة عنها للطعام، وذلك إمعانا فى الفصل بين الجنسين.

وتختلف السن التى يتحتم عندها الانفصال، ففى جزر «هبريدة الجديدة» بالمحيط الهادى يكون الفصل بمجرد الميلاد، حين يحمل الولد إلى بيت الرجال، ويتعهده أبوه بالتربية والرعاية، ويحرم على النساء أن يقربن جهة الرجال، وإلا كان الموت نصيبهن.

أما الأطفال البنات فيتسلمهن النساء، وإذا دخل الولد بيت أبيه ليأكل حرم عليه ذلك إذا كانت أخته هناك، ولا يصح لأمه أن تناوله الطعام بيدها، بل تتركه له عند قدميه يتناوله وحده. وإذا لاقى أخته فى الطريق وجب عليها أن تجرى بعيدا عنه لتختبىء، وإن لاحظ وقع أقدامها على الرمال وجب عليه أن يغير طريقه، لكيلا يظن أنه يتعقبها.

ويقول أيضاً فى كتب رحلاته: إن مدينة «سيول» فى كوريا يوجد فيها الفصل بين الجنسين. فهناك ناقوس موجود منذ ٤٥٠ عاما فى أحد الطرق كان يدق صباحا لفتح أبواب المدينة، ومساء لتغلق. ويدق الساعة التاسعة مساء ليسرع الرجال إلى إخلاء الطرق للنساء كى يتريضن، والويل لمن تخلف منهم.

كما يقول: كانت بنات الصين من الطبقة الراقية محجبات قبل الغزو الشيوعى.

وفى «بولينزيا» وهى جزر بالمحيط الهادى، لا يصح أن يأكل الذكر مع الأنثى، حتى إنه لا يجوز أن تطبخ الزوجة على نار زوجها، ويا للعار لمن يفعل ذلك، فعندئذ يعيره الناس فى الطريق بقولهم: أأنت إناء تستخدم فى تقديم الماء لأمك، وهل تقبل أن تشوى لحما لتطعم والدتك؟

ولا يصح للمرأة عند قبائل «الزولو» بأفريقيا، أن تذكر اسم زوجها، بل تقول عندما تتحدث عنه: أبو فلان وفلانة من الأولاد.

وعند الهنود الحمر فى كاليفورنيا لا يجوز ضم السيدات مع الرجال فى النوادى والمجتمعات. أهـ.

وفى أمريكا الجنوبية يلاحظ الطابع العربى فى كثير من البلاد، تقول «مدام برتكمان» قرينة السكرتير الثانى فى مفوضية الأرجنتين بمصر سنة ١٩٥١م، وهى حاصلة على دكتوراه الفلسفة والآداب من جامعة «بيونس إيرس»: إن البيوت مبنية على طراز المشربيات المحكمة التغطية، وقل أن توجد امرأة فى أحد الشرفات. وغالب النساء يرخى الطرحة على الرأس، وهى سوداء فوق تاج من العاج كأنه شبه حجاب، ولا يجوز للغادة أن تحضر مجالس الرجال عارية الأذرع، ولا يباح للصديق زيارة منزل ما إلا فى حضرة صاحبه. وإذا رقصت النساء كان ذلك وحدهن لا مع الرجال. أهـ، لكن هناك صورا أخرى تدل على تغير كل ذلك أو كثير منه، والمهم أن فكرة الحجاب كانت موجودة لشعورهم بفائدتها(١).

ونشر فى جريدة «المقطم» بتاريخ ٩/٤/١٩٣٢م الموافق ٣ من ذى الحجة ١٣٥٠هـ: أن الشابة فى صقلية لا تخرج وحدها، ولا تنفرد بمن ليس من أهلها.

كما نشر فى أهرام ٣٠/٧/١٩٦٣ تحت عنوان «أخبار العالم» أن جماعة من الرجال فى «دربان» بجنوب أفريقيا هجموا على مئات من النساء وحلقوا لهن شعورهن وقالوا: إن هذا الاجراء سوف يرغم النساء المستهترات، وخصوصا اللاتى يضعن أحمر الشفاه ويطلقن شعورهن – على عدم الظهور فى الشوارع.

يقول الرحالة محمد ثابت: يقال إن سبب الحجاب عامة هو عامل اقتصادى، كما عند الشعوب التى تعتمد على الصيد برا أو بحرا، كذلك تقضى المرأة عند قبائل «تودا» بالهند عن الرعى وحلب البقر، فهو من عمل الرجل. أما الزراعة فمهنة المرأة عند الشعوب المتأخرة، إذ يحتقرها الرجال. والرعى شرف لا يناله الرجال، ويقال: إن ألبانيا لا يأكل الرجال مع النساء، إلا إن كن عذارى قد آلين على أنفسهن أن يلبثن كذلك طوال حياتهن.

وفى سيبيريا لا تأكل الزوجة مع زوجها من طبق واحد، وإلا وقع النزاع بينهما لا محالة. والبعض لا يتناول طعاما أعدته المرأة، خوفا من أن تكون نجسة.

---

(١) انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ٨٨، ٨٩.

وبعض قبائل شرقى أفريقيا يحتم على البنات أن يلبسن بُرُداً غليظة تغطيهن من القمة إلى الأخْمُص، خوف نظر الرجال، ويعلل ذلك بالخوف من القوى الخفية التى ترقب ذلك وتحرمه. وتلحق بالمخالفة أضراراً جسيمة. ويظهر أن النساء جميعاً ينفرن بطبيعتهن من الرجال إذ ذاك، أى فى حالة فترة الحيض.

وفى المجر اليوم يحرم اختلاط الفتيات بالشبان بين قبائل «ماتيوك» ولهن فى الكنائس مقاصير خاصة لا يراهن الشبان.

وفى بعض مساجد تركستان يحرم عليهن الدخول، خوف تدنيس قدسيتها.

هذا ما نقله الرحالة والكاتبون والناشرون عن هذه المجتمعات، وأعتقد أن الزمن قد طورها وغير كثرا من عاداتها، وإذا كانت هذه مظاهر تدل على نظرة الناس إلى قيمة العفاف وإلى الحجاب فى أية صورة من صوره، فإن هناك صوراً أخرى من التفريط والاستهانة به، خرج بها الناس عن منطق الطبيعة النقية، وعادوا بها إلى الجاهلية الأولى، وسيأتى كثير منها عند الحديث عن السفور.

* * *